موضع العزة والشموخ ، فالحق - تبارك وتعالى - يريد لهم الذلّة والمهانة ، وفى موضع آخر يُبيِّن أن كل الأعضاء ستكبُّ فى النار ، فيقول تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الشعراء]

وليس هذا المصير ظلماً لهم ، ولا افتراءً عليهم ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النمل] وكما يقول سبحانه : ﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر] فلم نجامل صاحب الحسنة ، ولم نظلم صاحب السيئة .

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۢ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

فما دام أن الله تعالى أعطانا هذه المعلومات التى تلفتنا إلى قدرته فى آياته الكونية ، وذكّرنا بالآخرة ، وما فيها من الثواب والعقاب ، فما عليك إلا أنْ تلتزم (عرفت فالزم) واعلم أن مَنْ أبلغك منهج الله سيسبقك إلى الالتزام به ، فالشرع كما أمرك أمرنى .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِه الْبَلْدَةِ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [النمل] فإنْ طلبتُ منكم شيئاً من التكاليف فقد طالبتُ نفسى به أولاً ؛ لأننى واثق بصدق تبليغى عن الله ؛ لذلك ألزمتُ نفسى به .

والعبادة كما قلنا : طاعة العابد للمعبود فيما أمر وفيما نهى ؛ لأن ربك خلقك من عَدَم ، وأمدك من عُدْم ، ونظّم لك حركة حياتك ، فإنْ كلَّفك فاعلم أن التكليف من أجلك ولصالحك ؛ لأنه رب مُتولٍّ لتربيتك ، فإنْ تركك بلا منهج ، وبلا افعل ولا تفعل ، كانت التربية ناقصة .

إذن : من تمام الربوبية أن يوجهنى ربى كما نُوجِّه نحن أولادنا الصغار ونُربِّيهم ، ومن تمام الربوبية أن توجد هذه الأوامر وهذه

النواهى لمصلحة المربَّى ، وما دام أن ربك قد وضعها لك فلا بُدَّ أن تطيعه .

لذلك نلحظ فى هذه الآية ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. (٩١)﴾ [النمل] ولم يقُلْ : أمرت أن أطيع الله ؛ لأن الألوهية تكليف ، أمّا الربوبية فعطاء وتربية ، فالآية تُبيِّن حيثية سماعك للحكم من الله ، وهى أنه تعالى يُربِّيك بهذه الأوامر وبهذه النواهى ، وسوف تعود عليك ثمرة هذه التربية .

لذلك ، الصِّدِّيق أبو بكر حينما حدثوه عن الإسراء والمعراج لم يُمرِّر المسألة على عقله ، ولم يفكر فى مدى صدْقها ، إنما قال عن رسول الله : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] فالميزان عنده أن يقول رسول الله ، ثم يُعلِّل لذلك فيقول : إنى لأُصدِّقه فى الخبر يأتى من السماء ، فكيف لا أُصدِّقه فى هذه .

وقال تعالى : ﴿رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. (٩١)﴾ [النمل] أى : مكة وخصَّها بالذكْر ؛ لأن فيها بيته ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا .. (٩٦)﴾ [آل عمران] ثم يذكر سبحانه وتعالى من صفات مكة ﴿الَّذِى حَرَّمَهَا .. (٩١)﴾ [النمل] فهى مُحرَّمة يحرم فيها القتال ، وهذه وسيلة لحماية العالم من فساد الحروب وفساد الخلاف الذى يُفضى بكل فريق لأنْ تأخذه العزة ، فلا يجد حلاً إلا فى السيف .

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢ / ٣٦١) من حديث عائشة أنها قالت : « لما أُسْرِى بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدَّقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به فى الليل إلى بيت المقدس قال أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ، قال : نعم ، إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة ، فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق » .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطى لخَلْقه فرصة للمداراة وعُذْراً يستترون خلفه ، فلا ينساقون خلف غرورهم ، فحين تمنعهم من الحروب حُرْمة المكان فى الحرم ، وحُرْمة الزمان فى الأشهر الحرم ـ لأن كل فعل لا بُدَّ له من زمان ومكان ـ حين يمنعهم الشرع عن القتال فإن لأحدهم أن يقول : لم أمتنع عن ضعف . ولولا أن الله منعنى لفعلْتُ وفعلْتُ ، ويستتر خلف ما شرَّع الله من منع القتال ، إلى أنْ يذوق حلاوة السلام فتلين نفسه ، وتتوق للمراجعة .

ولحرمة مكة كان الرجل يلاقى فيها قاتل أبيه ، فلا يتعرَّض له احتراماً لحرمة البيت ، وقد اتسعتْ هذه الحرمة لتشمل أجناساً أخرى ، فلا يُعضد(١) شجرها ، ولا يُصاد صَيْدها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ .. (٩١) ﴾ [النمل] لأن الله تعالى حين يصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفى من الأرض أمكنة ، ومن الزمان ، يريد أن يشيع الاصطفاء فى كل شىء .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يُحَابى أحداً ، فحين يرسل رسولاً يُبلِّغ رسالته للناس كافة ، فيعود نفعه على الجميع ، وكذلك فى تحريم المكان أو الزمان يعود نفعه على الجميع ؛ لذلك عطف على ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا .. (٩١) ﴾ [النمل] فقال ﴿ كُلُّ شَيْءٍ .. (٩١) ﴾ [النمل] فالتحريم جُعل من أجل هؤلاء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) ﴾ [النمل] أى : المنفذين لمنهج الله يعنى : لا أعتقد عقائد أخبر بها ولا أُنفِّذها ، وقد قرن الله تعالى بين الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن فائدة الإيمان أنْ

---

(١) عضد الشجر يعضده ، فهو معضود : قطعه بالمعضد . والعضيد : ما قُطع من الشجر أى يضربونه ليسقط ورقه فيتخذوه علفاً لإبلهم . [لسان العرب ـ مادة : عضد] .

تعملَ به ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣) ﴾ [العصر]

فالله تعالى يريد أن يُعدِّى الإيمان والأحكام إلى أن تكون سلوكاً عملياً فى حركة الحياة .

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) ﴾

أنت حين تقرأ القرآن فى الحقيقة لا تقرأ إنما تسمع ربنا يتكلم ، ومعنى ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ .. (٩٢) ﴾ [النمل] يعنى : استدم أُنْسك بالكتاب الذى كُلِّفت به ، ليدل على أنك من عشْقك للتكليف ، عشقتَ المكلِّف ، فأحببتَ سماعه ، وتلاوة القرآن فى ذاتها لذة ومتعة .

فأنا سآخذ من تلاوته لذةً ، وأستديم البلاغ بالقرآن للناس ، وبعد ذلك أنا نموذجٌ أمام أمتى ، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. (٢١) ﴾ [الأحزاب]

يعنى : شىء يُقتدى به ، وما دام أن الرسول قدوة ، فكل مقام للرسول غير الرسالة مَنْ سار على قدم الرسول يأخذ منه ، وكذلك مكان كل إنسان فى التقوى ، على قَدْر اعتباره واقتدائه بالأُسْوة ، أما الرسالة فدَعْك منها ؛ لأنك لن تأخذها .

ومعنى ﴿ اهْتَدَى .. (٩٢) ﴾ [النمل] أى : وصلتْه الدلالة واقتنع بها ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. (٩٢) ﴾ [النمل] لأن الله سيعطيه المعونة ، ويزيده هدايةً وتوفيقاً ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

إذن : فالهداية والتقوى لا تنفع المشرِّع ، إنما تنفع العبد الذى اهتدى.

ثم يذكر المقابل ﴿ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) ﴾ [النمل] أنا لا يعنيني إلا أنني من المنذرين ، وأنت إنما تضلّ على نفسك ، وتتحمل عاقبة ضلالك .

وبعد أنْ أتممتَ ما خاطبك ربك به بأنْ تعبدَ ربَّ هذه البلدة وكنتَ من المسلمين ، وبعد أنْ تلوتَ القرآن ، واستدمت الأُنْس واللذَّة بسماع الله يتكلم ، ثم بلَّغته للناس ، فإذا فعلتَ كل هذا احمد الله الذى وفَّقك إليه :

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

أى : الحمد لله على نعمه وعلى ما هدانا ، والحمد لله الذى لا يُعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليه .

والله سيريكم آياته فى أنفسكم وفى غيركم ، فتعرفون دلائل قدرته سبحانه ووحدانيته فى أنفسكم ، وفى السماوات والأرض .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ [النمل]

بل هو شهيد على كل شىء .

سُورَةُ القَصَصِ